١ تشرين الثّاني

† القديسين الصانعي العجائب والماقتي الفضة قزما ودميان وأمهما البارة ثيودوتي – القدّيس البار في الشهداء يعقوب وتلميذاه يعقوب الشمّاس وديونيسيوس الراهب – القدّيسان الشهيدان الفارسيان يوحنا الأسقف ويعقوب الكاهن المكنّى بالغيور

القديسين الصانعي العجائب والماقتي الفضة قزما ودميان وأمهما البارة ثيودوتي

"لقد جعل القدّيسان رجاءهما كلّه في السماوات، فكنزا لهما كنزا لا يسلب، فإنهما أخذا مجانا فيمنحان الأشفية للمرضى مجانا، اتّبعا قول الأنجيل فلم يقتنيا فضّة ولا ذهبا، بل كانا يمنحان إحساناتهما للناس والبهائم حتى يكونا خاضعين للمسيح في كلّ الأحوال، وهما الآن يتشفّعان بدالّة في نفوسنا. "

هذا ما تنشده الكنيسة يوم عيد القدّيسين قزما ودميان، في صلاة المساء، موجزة سيرتهما في المسيح ومبيّنة الركائز التي على أساسها نسألهما الشفاعة لدى الرب الإله.

لا نعرف الكثير عن هذين القدّيسين رغم الإكرام الواسع الذي لقياه في الشرق والغرب معا ورغم كثرة الكنائس التي شيّدت على اسميهما على مدى العصور.

كان موطنهما ناحية من نواحي أفسس في آسيا الصغرى. وثمّ من يقول أنهما ولدا في بلاد العرب .كان أبوهما وثنيا وأمهما مسيحية اسمها ثيودوتي. وقد توفي الأب وولداه بعد صغيران فربّتهما والدتهما على المسيحية وأحسنت حتى التصق اسمها بإسمي ولديها كأم بارة في الكنيسة.

تلقن قزما ودميان جملة من معارف ذلك الزمان وعلومه فبرعا فيها .لكن تنشئة أمهما لهما على حياة الفضيلة ما لبثت أن جعلتهما يفطنان إلى بطلان الفلسفة وحكمة هذا الدهر إزاء حكمة المسيح فاستصغرا المعارف العالمية النظرية ورغبا في التملؤ من محبة المسيح ولسان حالهما ما قاله الرسول بولس

إلى أهل فيليبي. . ." : كل ما كان لي من ربح اعتبرته خسارة من أجل المسيح، بل أني أعتبر كل شيء خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربّي ، فمن أجله تحمّلت خسارة كل شيء وأعتبر كل شيء نفاية لكي أربح المسيح ويكون لي فيه مقام"

(٩ – ٨: ٣) وقد أفضى بهما هذا اليقين إلى الإقبال على الطب بنية تسخير العلم للمسيح وخدمة الكلمة والعناية بالمريض. فانكبا على الدرس والتحصيل حتى برعا، بنعمة الله، أي براعة. وبالإيمان ومحبة المسيح والطب فُتح لهذين المجاهدين باب عريض على الخدمة وتمجيد الله. فكان دأبهما رعاية المرضى، بالمجان عملا بالقول الإلهي :"مجانا أخذتم مجانا أعطوا "

(متى ١٠ ::٨) وقد سلكا في ذلك في حرص شديد حتى ليقال أن قزما خاصم أخاه دميان مرة خصاما شديدا لأنه تلقى ثلاث بيضات من امرأة كانت مريضة فأبرأها.

إلى ذلك سلك الأخوان في العفة والفقر خاضعين للمسيح في كل حال. وقد امتدت عنايتهما بالمرضى إلى البهائم لأنها هي أيضا من إبداع الله وتحت الألم.

واستمرّ قزما ودميان على هذا المنوال زمانا سخرا خلاله الأعشاب والأدوية وكل فكر وجهد محبة بالقريب فرضي الله عنهما ومنّ عليهما بنعمة الشفاء بكلمة الإيمان واللمس على منوال الرسل. من ذلك الوقت أضحت الصلاة واسم الرب يسوع وحده الدواء الشافي لكل مرض أو عاهة تعرض لهذين القدّيسين .فتقاطر عليهما الناس من كل صوب يسألون السلامة. وكان كل قاصد لهما يحظى بالتعزية والبركة والشهادة لاسم الرب يسوع.

ثابر هذان الخادمان على عمل الله، دونما كلل، طويلا، وكانا يتجدّدان أبدا في الصلاة والصبر والاتضاع والتماس رضى العلي إلى أن رقدا في الرب ودفنا في موضع يعرف بالفرمان. وقد شيّدت فوق ضريحهما كنيسة لم ينقطع سيل المتدفقين عليهما جيلا بعد جيل، السائلين شفاعة القدّيسين، النائلين برفاتهما بركة الشفاء من عاهات النفس والجسد. أما كيف رقدا فغير معروف تماما. ففيما يؤكد بعض المصادر أنهما أستشهدا في زمن الأمبراطورين الرومانيين ذيوكليسيانوس ومكسيميانوس عام ٣٠٣ للميلاد، تميل مصادر أخرى إلى القول بأنهما رقدا بسلام دون أن تعطي لذلك تاريخا محددا.

البار في الشهداء يعقوب وتلميذاه

ولد يعقوب في كنف عائلة فقيرة في ناحية كستوريا نشأت على التقوى. تيتّم في سن مبكّرة واضطر إلى العمل كأجير في رعاية الأغنام ليردّ عن نفسه شبح الموت جوعًا. بارك الله سعيه فأصاب في وقت قصير نجاحًا كبيرًا حتّى أصبح من أصحاب الثروات مما أثار حسد أخيه فاتهمه لدى الأتراك بأنّه

وقع على كنز في الأرض، فاضطر إلى التواري والتجأ إلى مدينة القسطنطنيّة حيث عاش فقيرًا لبعض الوقت.

تعرّف على أحد البكوات الأتراك الذي مدح الإيمان المسيحي، فقرّر نتيجة ذلك الانصراف إلى الحياة الرهبانيّة فوزّع ماله على الفقراء وسافر إلى جبل آثوس وترهّب هناك، حيث قضى ثلاث سنوات، وتنسك بعدها في موضع خرب حيث قيل أنّه صارع الشيطان ست سنوات متتالية وتمكّن بنعمة الله من التخلّص من الشياطين .

ثم أن الله عزّى قلبه بشاب مجدّ جاء يشاركه الحياة النسكيّة تلميذًا، وكان لا يتناول إلا كسرة من الخبز كلّ يوم، أمّا لياليه فاعتاد قضاءها في الصلاة قوامًا.

حاز بناء لطلب رهبان الجبل المقدّس على إذن يسمح له بقبول الاعترافات مع أنّه لم يكن كاهنًا ورغم أميّته فإنّ قدرته على الإفراز حتّى في القضايا البالغة التعقيد كانت مميّزة. كان ممتلئًا حبًّا لكنّه صارمًا متطلّبًا لا سيما مع الكهنة. كان يعقوب ينتقل من دير إلى دير ينشر تعليمه النورانيّ ويصلح النسّاك المستكبرين مشجعًا المتهاونين ومساعدًا الخجلين من كشف خطاياهم بكشفها لهم وتحريرهم من وطأتها عليهم .

ترك القدّيس الدير والتجأ إلى البرية في الجبل المقدّس لينعم بأطايب الوحدة والسكون لبعض الوقت. جاءه ملاك الربّ يومًا وقدّم إليه ثلاث خبزات سوداء ليأكلها فعرف أن الربّ يدعوه إلى الاستشهاد .

ثم ترك الجبل واتجه إلى الميتيورة الغنية بالأديرة، ذاع صيت عجائبه ومواهبه فأوغر بعض الحساد صدر الأسقف أكاكيوس فوشى به لدى الحاكم التركي فأوفد الجنود وقبض عليه مع اثنين من تلاميذه، يعقوب الشمّاس وديونيسيوس المتوحّد.

استجوب الحاكم القدّيس يعقوب فلم يجد عليه ذنبًا، مع ذلك ألقاه في السجن آملاً منه أن يقدّم مالاً لقاء إفراجه عن الموقوفين، لكن الأمور تعقّدت فتعرّض هو وتلميذاه للتعذيب ثم سيق الثلاثة إلى المشنقة ونفذ فيهم حكم الإعدام بعد ذلك بقليل.

القدّيسان الشهيدان الفارسيان يوحنا الأسقف ويعقوب الكاهن

قضى هذان القدّيسان في أيام الملك شابور الثاني الطاغي.

نشرا الإيمان واجتذبا الكثيرين، وعذّبا وقطعت هامتهما في بيت لابات.

وقيل فيما كان يوحنّا يصلي قبل ذلك بسبعة أيام ويسأل الله أن ينعم عليه ببركة الاستشهاد، إن ملاكا حضره في الحلم قائلاً "أنعم بما طلبت. اقتن ما تمنيّت."!

الطروبارية

+ لقد منحتنا عجائب قدّيسيك الشهداء سوراً لا يُحارب أيّها المسيح الإله، فبتوسّلاتهم شتّت مشورات الأمم، وأيّد صوالج المملكة، بما أنّك صالح وحدَك ومحبّ للبشر.